المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية | المجلد: 5 / العـــدد: 2 (ديسمبر2020) ، ص 5- 19

دور الجزائر في معارك البحر المتوسط خلال القرن 16م .

(مواجهة المشروع المسيحي)

The role of Algeria in the battles of the Méditerranéen Sea during the 16 th centry

الشافعي درويش *

جامعة زيان عاشور الجلفة . الجزائر

chafaiderouiche@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/11/25 تاريخ القبول: 2020/11/29 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:

منذ ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية في سنة 1519م ،ساهمت بفضل قوة بحريتها وشجاعة رياسها في معظم معارك البحر المتوسط ،التي دارت بين المشروعين الإسلامي والمسيحي ،واكتسبت أهمية كبرى ومكانة مرموقة في حوض المتوسط بقسميه الشرقي والغربي ،فقد كانت الجزائر قوة يحسب لها حسابها خلال القرن 16م ،من خلال الأدوار التي قامت بها في المتوسط ،ومشاركتها في الأحداث التي دارت في ذلك الحوض ،باعتباره مسرحا للعلاقات والاحتكاك بين دولي ضفتيه الشمالية والجنوبية.

الكلمات المفتاحية للمقال:

إيالة الجزائر –الدولة العثمانية –العهد العثماني –البحرية الجزائرية –معركة مالطة –البحر المتوسط –ليبانت –المورسكيون –الإسبان – 1519م –1565م –القرن 16م –1571م –1574م .

ABSTRACT :

Since the accession of Algeria to the Ottoman Empire in 1519,thanks to the strength of its navy and the courage to fight it in most of the Méditerranéen battles ,which took place between the Islamic and Christian projects,and gained great importance in the Mediterranean .Algeria was a force to be reckoned with during the 16 th centry ,through its roles on average .

Key Words

Algeria –the Ottoman Empire –the Algerian Navy –the Battle of Malta –Lepant –the Spaniards –the Morsiciants –16 th -1519 –1565 –1571 –1574 .

* المؤلف المرسل: الشافعي درويش

مقدمة :

تجدر الإشارة انه من خلال ما يتوفر لدينا من إنتاج أدبي تاريخي محلي فيما يتعلق بتاريخ الجزائر خلال الفترة الحديثة – الفترة العثمانية – أن هذا الإنتاج يبقى ضئيل مقارنة بثراء هذه المرحلة التاريخية من جهة ، وغزارة الكتابات الغربية المتعلقة بتاريخ الجزائر خلال نفس الفترة ؛ ذلك أن الأوربيين عموما كتبوا بغزارة عن الجزائر خلال العهد العثماني ،ورغم اختلاف جنسيات تلك المصادر ،إلا أنها تشترك في الأهداف والغايات .

ذلك أنه منذ ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية في سنة 1519م ،تغير مستقبل منطقة المغرب الأوسط ،والمغرب الإسلامي عموما ،كما تغيرت أهدافه ومكانته وسياسته وعلاقاته الخارجية .فقد أصبحت الجزائر إيالة عثمانية ؛اكتست أهمية كبيرة ،فحملت على عاتقها مسؤولية تحرير سواحلها من الاحتلال المسيحي الإسباني ،ومسؤولية مواجهة المشروع المسيحي في البحر المتوسط ،وفي الحوض الغربي منه على وجه الخصوص ،إضافة إلى مهمة تحرير باقي أقطار المغرب الإسلامي ،وإنقاذ مسلمي الأندلس المضطهدين والفارين من البطش الإسباني ،وكذا مساندة الدولة العثمانية في مشروعها لحماية العالم الإسلامي ،ومجابهة الغرب المسيحي المتحالف ضدها .

لقد أصبح للجزائر مكانة كبرى وشأن عظيم في البحر المتوسط منذ ارتباطها بالدولة العثمانية ،وهذا بفضل بحريتها ورياسها ،خلال القرن السادس عشر الميلادي ،لذلك وصفها الكتاب الغربيون بقولهم: **إنها أصبحت اليد الطولى التي تضرب بها الدولة العثمانية في البحر المتوسط .**

فقد شاركت الجزائر في معظم إن لم نقل كل الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في المتوسط ،خلال القرن 16م ،وكانت سببا في ضم كل من طرابلس الغرب ،وتونس الحفصية إلى الدولة العثمانية .فشاركت البحرية الجزائرية في معركة تحرير طرابلس الغرب وضمها للدولة العثمانية في سنة 1551م ،ثم في معركة حصار مالطة من أجل القضاء على قراصنتها المسيحيين في سنة 1565م ،ومعركة ليبانت في سنة 1571م لمواجهة التحالف المسيحي ،ثم معركة تحرير تونس من الاحتلال الإسباني في سنة 1574م ،وبذلك اكتمل توحيد منطقة المغرب الإسلامي تحت النفوذ العثماني بفضل الجزائر .

والإشكال المطروح في هذا المقال ،يدور حول عدة تساؤلات أدرجتها في ما يلي :ما هو الدور الذي لعبته الجزائر في حوض البحر المتوسط ؟ وفيما تمثلت مكانتها في المتوسط؟ وهل فعلا كانت للجزائر أهمية بين الدول في المتوسط ؟ وما هو موقفها من الأحداث التي وقعت في المتوسط خلال القرن 16م ؟.

1- نظرة تقييمية للكتابات الغربية المتعلقة بتاريخ الجزائر الحديث :

كانت الجزائر منذ أن ألحقت بالخلافة العثمانية في سنة 1519م ، موضوع اهتمام بالغ ودراسات متواصلة ،وأبحاث مختلفة من طرف الأوربيين ،والفرنسيين خاصة ،ولم يحظ قطر من أقطار شمال أفريقيا ؛بما حظيت به الجزائر من إنتاج أدبي ،وتاريخي وعسكري[1].

لكن رغم ذلك الإنتاج ، يجب إعادة النظر في ما ألفه الغربيون والفرنسيون خصوصا ؛عندما كان ميدان التأليف حكرا عليهم ،بسبب ما ألصقوه بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني من تشويه وتحريف ،لذلك نحن في حاجة إلى نظرة تقييمية ،لذلك الرصيد من الإنتاج الأدبي المتنوع والمتشبع ،إذ أن ذلك الإنتاج كان لهدف معين ،ولغاية معينة ،ولم يكن موضوعيا .ومن جهة أخرى لا يمكننا الاستغناء عن ذلك الإنتاج الأدبي والتاريخي ؛نظرا لأهميته ،لذلك يجب علينا معرفته وتقييمه قبل التعامل معه [2].

إن المصادر الغربية المتعلقة بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني ،تتميز بتنوعها وغزارتها ،وهي من جنسيات مختلفة ؛الإسبانية والإيطالية ،والفرنسية والإنجليزية ،وحتى الأمريكية ...الخ ،وهي عبارة عن رحلات أو تقارير ،أو مذكرات ألّفها قناصل أو جواسيس ،أو رهبان جاءوا إلى الجزائر ،وتعرفوا على طبيعتها ،وهذه المصادر من الضخامة بحيث تتجاوز مجهود باحث واحد ،وهذا ما يؤكد غزارتها ، ذلك أنها امتدت على مدى ثلاثة قرون من الزمن [3].

ذلك أننا لا نجد أي كتاب تعرض لتاريخ الجزائر قبل الاحتلال ،ولم يعتمد على ما أورده هؤلاء الرحالة والتجار ورجال الدين ،والقناصل ابتداء من **هايدو** ووصولا إلى **شالر** ؛ورغم أهمية هذه المصادر ومعاصرتها للأحداث ،إلا أنها ولاعتبارات ظرفية وموضوعية ،لا تمكننا من تجديد نظرتنا للعهد العثماني ،وإعادة صياغته بمنظور مبتكر وتصور موضوعي ،بل تؤدي بنا في غالب الأحيان إلى إعادة صياغة الأحداث من خلال نظرة سطحية ،قد لا تتماشى مع الواقع التاريخي في حد ذاته [4].

ومن أهم هذه الكتابات التي تنوعت واختلفت طبيعتها ،بسبب طول المدة ثلاثة قرون وتنوع أصحاب هذه المؤلفات ،من اسرى وقناصل ورحالة ورهبان وجواسيس ،وبالتالي كانت كثيفة ومتنوعة ،إلا أنها تصب في نفس المضمون ،وهو الحقد على الجزائر وقراصنتها الأتراك كما تصفهم في غالبيتها .ومنها كتابات على سبيل المثال لا الحصر :**هايدو ،الأب دان ،امانويل دارانداا ،دولا كروا ،الإنجليزي توماس شو ،لوجي دو طاسي ،والألماني هابنسترايت ،بايصونال ،ديسفونتان ،فونتور دي بارادي ،وليام شالر** [5].

إن هذه المصادر رغم تعدد مشاربها ،إلا أنها أجمعت كلها على وصف الجزائريين خلال العهد العثماني ؛بالقرصنة واللصوصية ،فقد اطلق هؤلاء العنان لأفكارهم وأقلامهم ،لمهاجمة الجزائر وتصويرها في أحلك وأبشع صورة ،لانهم كانوا على يقين أن أراءهم سيكون لها الصدى المنشود لدى السياسيين الأوربيين .إن تلك الكتابات نابعة من ذاتية مشحونة بالحقد والكراهية لحكومة الجزائر ،وقد غذّاها عاملان هما:

أولا الصراع بين الإسلام والمسيحية ،فكانت تلك المصادر ملتزمة ؛هدفها الوحيد هو خدمة المسيحية .

وثانيا هو عجز الدول الأوربية عن المواجهة والتصدي لقوة البحرية الجزائرية ،فتحول العجز إلى ازدراء وسخط واحتقار ،ولذلك مهدت تلك المؤلفات للنظريات الاستعمارية ،التي تزعمتها المدرسة الغربية فيما بعد [6].

ومما يميز تلك الكتابات :

- القيمة الإخبارية أي المعلوماتية التي لا يمكن إنكارها .
- الأيديولوجية الخفية التي تضمنتها تلك الكتابات .
- اعتمادها من طرف جل المؤرخين سواء الغربيين أو الجزائريين [7].
- إن النزعة السائدة في تلك الكتابات هي الكراهية للجزائر .
- اهتماماها بأشياء وإغفالها عن أشياء مهمة من تاريخ الجزائر :الحملات الأوربية المتكررة وانهزامها . سواء التفسير أو شرح الأحداث .تنافس ملوك أوربا في كثير من الأحيان للتقرب من حكام الجزائر (الهدايا ،الضرائب) [8].

2- ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية :

في الوقت الذي اشتدت فيه الهجمات الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي بصفة عامة ، وعلى سواحل المغرب الأوسط بصفة خاصة ؛ ضمن المشروع الإسباني الذي يهدف إلى احتلال المنطقة . وبسبب ضعف المقاومة المحلية ، وغياب السلطة الزيانية التي انحصرت في العاصمة تلمسان ، التي أعلن حكامها

بدورهم التبعية للإسبان .كان ضروريا من ظهور قوة جديدة تقود عمليات التحرير ضد الاحتلال .فظهر الإخوة بربروس ،الذين سيلعبون دورا هاما في توجيه العلاقات بين بلدان المغرب الإسلامي ، وإسبانيا في الحوض الغربي للبحر المتوسط [9].

وبعد محاولات من الأخوة بربروس لتحرير السواحل الجزائرية من الاحتلال الإسباني ،استشهد عروج في سنة 1518م على يد الإسبان ، فعزم خير الدين بربروس على مغادرة الجزائر بعد استشهاد أخيه لكن أعيان المدينة رفضوا ذلك ، وطلبوا منه البقاء [10].

لذلك تراجع عن قراره وبدأ يعمل على تدعيم أسس الدولة الجزائرية ، التي جعل من مدينة الجزائر عاصمة لها ، والتي ستتولى مواجهة الحملات الإسبانية ، وحماية المنطقة المغربية ،وبفضل عبقرية خير الدين ، الذي رأى أنه بحاجة إلى قوة حليفة تقف إلى جانبه لمواجهة الخطر المسيحي الإسباني ، ومشروعه الاستعماري ؛ فرأى أن القوة الوحيدة القادرة على حماية البلاد ؛ هي الدولة العثمانية الإسلامية ، فعرض ذلك على أعيان مدينة الجزائر ، الذين رضوا [11]. ووجهوا رسالة إلى السلطان العثماني سليم الأول ؛ يطلبون فيها التبعية للدولة العثمانية في سنة 1519م [12].

وافق السلطان على دخول الجزائر إلى أقاليمه ، ومنح خير الدين لقب بيلرباي ، وأرسل إلى الجزائر أسطولا بحريا ، وقوة من الانكشارية ، وكمية من الأسلحة . وبذلك أصبحت الجزائر مرتبطة بالدولة العثمانية ، ومتحالفة معها ضد إسبانيا والعالم المسيحي ؛ وهذا ما وصفه المؤرخون الأوربيون بأنه بادرة غيرت مجرى التاريخ الإفريقي [13].

وأصبحت الجزائر منذ هذا التاريخ إيالة عثمانية ،وبذلك اصبح للدولة العثمانية مبرر للوصول إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط ،وستعرف الجزائر منذ هذا التاريخ مرحلة جديدة من تاريخها خلال العصر الحديث ،وستعرف تطورات هامة مست جميع جوانب الحياة .

قرر خير الدين تحرير قلعة البينيون في سنة 1529م لتخليص الجزائريين من المدفعية الإسبانية الموجهة إلى منازلهم .لذلك ارسل خير الدين إلى قائد الحامية الإسبانية ينذره بالتوقف عن أذية سكان المدينة ، لكن الحامية لم تأخذ بإنذاره ؛ لذلك بدأ في قصفها يوم 06 ماي 1529م [14]. ،وفي يوم 27 ماي 1529م هاجم الجزائريون القلعة ليلا ، وتمكنوا من قتل ، وأسر من كان فيها [15].

وبعد الانتهاء من عملية تحرير حصن البنيون ، أمر خير الدين بتهديم القلعة التي أقامها الإسبان وشكلت تهديدا مستمرا للمدينة ، وأقام على أنقاضها رصيف متصل بمدينة الجزائر، وبذلك صار للمدينة ميناء ترسو به السفن ، يحميها من الرياح والأعداء ، وصارت الجزائر معقلا قويا للنشاط البحري في حوض البحر المتوسط .وستبدأ في مواجهة المشروع الإسباني المسيحي في حوض المتوسط.

3- مهاجمة البحرية الجزائرية للسواحل الإسبانية بعد احتلال تونس سنة 1535م :

كانت تونس إحدى جبهات الصراع بين الجزائر ، وإسبانيا حيث استطاع خير الدين ضمها للدولة العثمانية في سنة 1534م ، من أجل بسط سيطرتها على الحوض الغربي المتوسط ، والتحكم في طرق مواصلاته ، وهو ما شكل خطرا على إسبانيا . لذلك قرر شارلكان تدعيم مركزه باحتلال تونس في سنة 1535م ، إلا أن ذلك لم يمنع السواحل الإسبانية من تلقي ضربات موجعة على يد البحرية الجزائرية ، التي ظلت تنشط باستمرار في الحوض الغربي من المتوسط .

فقد قرر خير الدين الرد على احتلال تونس بتوجيه ضربة عنيفة للإسبان في عقر دارهم ، واختار مدينة ماهون عاصمة جزر البليار ، التي كان سكانها يحتفلون بانتصار الإسبان في تونس ، فهاجم المدينة فجأة في أواخر شهر سبتمبر سنة 1535م ، واستحوذ على غنائم كثيرة ، ثم احتل جزيرة مينوركة بأكملها، وعاد إلى مدينة الجزائر محملا بالغنائم مع ستة آلاف أسير [16].

4- دور البحرية الجزائرية في معركة بريفيزا سنة 1538م :

كما تعاونت البحرية الجزائرية مع الدولة العثمانية في صراعها ضد الإسبان ، عندما شكلت الدول الأوربية المسيحية حلفا مقدسا لضرب الدولة العثمانية ؛ ضم كل من إسبانيا ، البابوية ، البندقية ، وفرسان مالطة ، وذلك في فيفري سنة 1538م ؛ضم الأسطول المسيحي مائتي سفينة على متنها أكثر من ستين ألف رجل ، بينما ضم الأسطول العثماني مائة وثلاثون سفينة على متنها ثلاثون ألف رجل ، وكان اللقاء في خليج أرتا Arta ، وبالضبط في بريفيزا [17].Prévéza [18].

قاد الأسطول العثماني خير الدين ، بينما قاد أسطول التحالف المسيحي أندري دوريا .وقد انتهت المواجهات بين الطرفين في معركة بريفيزا بانتصار الأسطول الإسلامي ، وتصدع التحالف الأوربي بعد انسحاب جمهورية البندقية ، التي وقعت معاهدة صلح مع الدولة العثمانية في سنة 1538م [19].

كما تمكن درغوث رايس في شهر جويلية سنة 1539م ؛ وهو أحد تلامذة خير الدين من استرجاع مدينة كاستيل نوفو Castel Nouvo ،التي كان أندري دوريا قد احتلها في سنة 1538م .كما أغار الأسطول الجزائري في سنة 1539م على الموانئ الإسبانية بجبل طارق ، وعاد محملا بالأسرى حيث تم بيعهم في مدينة تطوان [20]. وبذلك يمكن القول أنه بفضل قوة البحرية الجزائرية ورياسها ،تمكن التحالف الإسلامي من التصدي للمشاريع المسيحية الأوربية في البحر المتوسط .

5- دور البحرية الجزائرية في معركة مالطة في سنة 1565م :

تمثل مساهمة البحرية الجزائرية في معركة مالطة ؛ مظهرا هاما للصراع الإسلامي المسيحي ، فقد ساهمت الجزائر إلى جانب الدولة العثمانية من أجل القضاء على فرسان مالطة ،أو ما يعرفون بفرسان القديس يوحنا ،بسبب عدائهم الشديد للمسلمين ؛ولأنهم شاركوا في كل الحروب الصليبية ضد بلدان المغرب الإسلامي ، مثل احتلال تونس في سنة 1535م ، وحملة شارلكان ضد مدينة الجزائر في سنة 1541م ، كما كانوا يهاجمون السفن الإسلامية ، ويعترضون طرق الحجاج المتجهين إلى البقاع المقدسة ،ويقومون بنشاط متزايد يتمثل في مراقبة حركة الأسطول العثماني على العموم ، وضرب المواقع العسكرية المغربية عن طريق المباغتة ، والاستيلاء على السفن العثمانية المنعزلة [21].

نتيجة لكل هذه العوامل قرر السلطان العثماني مهاجمة فرسان مالطة ، فبعث برسائل إلى كل قادة إيالات الدولة العثمانية ، يدعوهم فيها للمشاركة في حملة ضد مالطة ؛ وكان من بينهم حسن باشا بن خير الدين حاكم الجزائر [22].فقد تلقى حسن باشا بيلرباي الجزائر تلقى عدة رسائل سرية من السلطان العثماني في شهر سبتمبر من سنة 1564م ، ثم في شهر مارس من سنة 1565م، يطلعه فيها عن عزمه توجيه قوة عسكرية كبيرة ضد جزيرة مالطة ويطلب منه الاستعداد ، وقد حدد له تاريخ الإقلاع ، الذي كان في شهر ماي من سنة 1565م [23].

فتوجه حسن باشا حاكم الجزائر نحو جزيرة مالطة على رأس قوة عسكرية تتكون من ثماني وعشرون سفينة جيدة التجهيز ؛على متنها ثلاثة آلاف رجل من خيرة المقاتلين الجزائريين ، غير أنه لم يصل إلى مالطة إلا في اليوم الخامس من شهر جويلية سنة 1565م [24].

لقد كان للبحرية الجزائرية وقائدها دور كبير في الحرب ، فقد اعترف بذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم ، وأشادوا بالدور الهام لحسن باشا ، وللبحرية الجزائرية في هذه الحرب ؛ حيث قال المؤرخ هايدو : ((**لقد قدم حسن باشا خدمات عظيمة طيلة مدة هذه الحرب**)) [25].

حيث تولى حسن باشا قيادة كل الهجومات الخطيرة ، فقد كلفه مصطفى باشا بمهاجمة حصن سانت ميشال ، ووضع تحت تصرفه ستة آلاف جندي .وقد ألحق الجزائريون خسائر كبيرة فقد فيها العدو المسيحي أكثر من مائتي جندي ، وإثنين من خيرة الفرسان .كما هاجم حسن باشا حصن سانت ميشال وتكمن الجزائريين من التقدم نحو الساحل ، والنزول به ، حيث وصلوا إلى الحصن المذكور ، ونصبوا عليه سبعة ألوية [26].

ونظرا للدور الفعال ، الذي قام به حسن باشا في حرب مالطة رغم أن الحملة العثمانية كان مصيرها الفشل ، فقد كافأه السلطان العثماني سليم الثاني بن سليمان ، وعينه بعد موت بيالي باشا؛ أميرالا للبحرية العثمانية في 1567م ، فغادر الجزائر نهائيا [27].

لقد كشفت حرب مالطة عن ، الدور البارز للبحرية الجزائرية في الصراع الإسلامي المسيحي في حوض المتوسط . كما مثلت نموذجا لقوة البحرية الجزائرية وحسن تخطيط قادتها وبحارتها .

6- مساهمة الجزائر في نصرة المورسكيين في سنة 1568م ضد إسبانيا:

تمثل مساهمة الجزائر في تدعيم الثوار الاندلسيين ضد إسبانيا ، والتي شكلت تهديدا داخل إسبانيا نفسها ؛ أحد المظاهر البارزة للعلاقات العدائية بين الطرفين . فقد كان للجزائر دور متميز في ثورة المورسكيين ، التي اندلعت في سنة 1568م . ففي 12 مارس 1524م أصدرت الحكومة الإسبانية مرسوما يفرض التنصير على المسلمين ، الذين بقوا في إسبانيا ، أو يتم طردهم ، أو استرقاقهم [28].

كما صدرت ضدهم قوانين أخرى سنوات 1563 م و1567م ؛ لقد كانت تلك القوانين شديدة الوطأة ، والقسوة عليهم . فهاجر العديد منهم إلى بلدان المغرب الإسلامي ، أما البعض المتبقي فقد اضطرتهم الظروف إلى البقاء بديارهم . ورغم عمليات التنصير القسري ، التي كانوا يتعرضون لها ؛ إلا أنهم ظلوا متمسكين بدينهم ، ومتواصلين بإخوانهم المسلمين ، خاصة بالإيالات المغربية ، والمغرب الأقصى [29].

ولم يتردد مسلمو الأندلس في طلب الاستغاثة من الدولة العثمانية بين الحين والآخر ، فقد بعثوا في سنة 1541م بعد الانتصار ا، الذي حققته الجزائر ضد القوات المسيحية المتحالفة ، التي قادها شارلكان ؛ برسالة استغاثة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني [30].

كما أصدرت الحكومة الإسبانية في سنة 1567م مرسوما جديدا يزيد من الاضطهاد لمسلمي الأندلس في عهد فيليب الثاني ، يحرم على المسلمين كل ماله صلة بتاريخهم القديم ، وقد أعلن عن هذا القانون في أول جانفي من سنة 1567م . نتيجة إلى الإجراءات الاضطهادية ، التي تعرض لها مسلمو الأندلس ، ورغم أن معاهدة غرناطة تحفظ لهم كل حقوقهم. كل هذا دفع بهم إلى تفجير الثورة ضد إسبانيا في أواخر سنة 1568م [31].

تعددت العوامل ، والأسباب التي أدت إلى إعلان ثورة المورسكيين في هذا الوقت بالذات ، لكن من أهمها ؛ تلك الانتصارات التي حققها الأسطول الإسلامي بفضل التحالف بين الجزائر والدولة العثمانية في حوض المتوسط ، يضاف إلى ذلك إعلان الجزائر و حاكمها علج علي نيتها في مساندة مسلمي الأندلس ، و مواصلة الصراع ضد إسبانيا [32].

اتصل مسلمو الأندلس بعلج علي حاكم الجزائر ،وشرحوا له الوضعية التي يعيشونها ،وطلبوا مساعدتهم ،وقد أظهر علج علي استعداده لنصرة مجاهدي الأندلس في ثورتهم ضد إسبانيا ، وتمكن الأهالي الجزائريين من جمع كميات هامة من الأسلحة لتدعيم إخوانهم المسلمين ،كما اتفق علج علي مع مسلمي الأندلس على وقت اندلاع الثورة [33].

وبهدف تشتيت القوات الإسبانية وإضعافها ؛ قرر علج علي القيام بحملة من أجل استرجاع مدينة وهران ، ثم التوجه إلى السواحل الإسبانية حيث تمت عملية الإنزال بالسواحل الإسبانية . وفق الخطة المتفق عليها مع المورسكيين . كما أرسل علج علي أربعين سفينة نحو سواحل إسبانيا ، التي وصلت في يوم الأربعاء المقدس لدى المسيحيين إلى ميناء المرية الإسباني Almeria ،لكن إسبانيا اكتشفت المشروع ؛ بسبب خطأ ارتكبه أحد قادة الثوار قبل اندلاع الثورة بيوم واحد ، ففشلت الحملة ، وضاعت فرصة مفاجأة القوات الإسبانية [34].

كما استمر علج علي حاكم الجزائر في تدعيم الثوار الأندلسيين ، خلال سنة 1569م ، حيث بعث بعدة أساطيل محملة بالأسلحة ، والجنود ذوي الخبرة ؛ لتأطير المجاهدين الأندلسيين ، وتجددت المساعدات الجزائرية في السنة الموالية [35] .وقد فكر علج علي حاكم الجزائر في تولي الهجوم ضد إسبانيا بنفسه لمساندة الثوار المورسكيين ، لكنه اضطر للبقاء في الجزائر مترقبا الأحداث بسبب الحروب ،التي كانت الدولة العثمانية تخوضها [36].

وبهدف إضعاف القوات الإسبانية هاجم علج علي تونس في شهر أكتوبر سنة 1569م ،من أجل تحريرها من الإسبان [37].فأدركت إسبانيا الخطر الذي يهددها من طرف المجاهدين الأندلسيين ؛ بفضل الدعم الذي يلقونه من الجزائر ، فضلا عن إمكانية تدخل الأسطول العثماني [38].لذلك قررت تصفيتها في أسرع وقت ممكن ، وهو ما حدث في 28 أكتوبر 1570 [39].

لقد لعبت الجزائر دورا بارزا في مناصرة مسلمي الأندلس ،ولم تبخل عليهم بأي مساعدات ،لكن الظروف حالت دون نجاح ثورتهم ،ورغم ذلك ظلت الجزائر تدعمهم إلى غاية الطرد النهائي ، حيث احتضنتهم المدن الساحلية الجزائرية .

7- دور البحرية الجزائرية في معركة ليبانت سنة 1571م :

تعتبر معركة ليبانت من مظاهر العداء بين المسلمين والمسيحيين في حوض البحر المتوسط ، حيث قررت إسبانيا نقل الصراع بعيدا عن سواحلها ، وإشعال النزعة الصليبية الأوربية في مواجهة الخطر الإسلامي ، وتجلت لمساعيها في معركة ليبانت ، التي وقعت في يوم 07 أكتوبر من سنة 1571م. فقد تمكن البابا بيوس الخامس من توحيد الدول المسيحية الأوربية ، من أجل القيام بعمل عسكري مشترك لمواجهة الدولة العثمانية ؛ فتم توقيع الحلف المقدس في 25 ماي سنة 1570م ،وعيّن دون جوان النمساوي قائدا لقوات التحالف الأوربي [40].

وكانت القيادة العثمانية على علم بالتحركات الأوربية ، ونظرا للدور البارز الذي صارت تلعبه البحرية الجزائرية ، المتحالفة مع البحرية العثمانية ؛ فقد وجه السلطان العثماني سليم الثاني رسالة إلى بيلرباي الجزائر علج علي ، مؤرخة في 02 ذو القعدة سنة 978هـ يدعوه فيها إلى تجهيز سفنه ، والالتحاق بالأسطول العثماني [41]. فسارع علج علي إلى تلبية النداء ، حيث غادر الجزائر في ربيع سنة 1571م على رأس حوالي خمسين سفينة ؛ قصد الالتحاق بالأسطول العثماني في كورفو ، وأثناء الطريق قام بغزو عدة مواقع مسيحية بالجزر الأيونية [42].

ولقد رأى علج علي أن الأسطول الإسلامي غير مجهز تجهيزا كافيا ؛ لذلك يجب التريث ، في خليج ليبانت إلى غاية انتهاء فصل الشتاء ، حتى تتم تقوية الأسطول ليكون جاهزا للهجوم ، غير أن علي باشا قائد الأسطول الإسلامي خالفه الرأي ، فطلب علج علي أن تتم المعركة في البحر بعيدا عن الساحل. لكن علي باشا خالفه ، وهو ما أدى إلى هزيمة الأسطول الإسلامي [43].

بدأت المعركة في يوم 07 أكتوبر سنة 1571م ، وبعد ساعات قليلة من بداية المعركة هزمت ميمنة الأسطول الإسلامي ، وقتل قائدها كما قتل علي باشا قائد الأسطول الإسلامي . أما علج علي قائد ميسرة الأسطول الإسلامي فقد حقق انتصارات هامة على القوات المسيحية ؛ حيث استولى على عشر سفن منها واحدة تحمل قيادة قوات مالطة ، فاستولى على رايتها ، وقتل ما يقرب على خمسمائة جندي [44] .

وبعد مقتل علي باشا تولى علج علي قيادة الأسطول الإسلامي بنفسه ، وقلب المعركة بعد التقهقر ، الذي لحق بميمنة الأسطول الإسلامي ؛ تمكن علج علي من الإفلات من محاصرة الأسطول المسيحي ، وإنقاذ أسطوله والعودة به سالما إلى استانبول ، خلافا لبقية الأسطول العثماني الذي تم القضاء عليه [45].

كان الأسطول الجزائري هو الوحيد الذي نجا من الهزيمة ، التي حلت بالأسطول الإسلامي ، وعلج علي هو القائد المسلم الوحيد ، الذي ظهر كقائد كفء يملك خبرة عالية . وعندما عاد إلى استانبول استقبل استقبال المنتصرين ، وعينه السلطان العثماني سليم الثاني في منصب قابودان باشا، مع احتفاظه بمنصب بيلرباي الجزائر ، ومنذ ذلك الوقت أصبح يعرف بقيلج علي [46].

وستواصل الجزائر دورها في المتوسط لتحرير ما بقي من الثغور الإسلامية في أيدي الإسبان .

8- دور البحرية الجزائرية في تحرير تونس في سنة 1574م :

بقيت تونس تمثل إحدى النقاط الساخنة التي اشتد بشأنها الصراع بين العثمانيين والإسبان في هذه الفترة ، فقد صارت تمثل محور الصراع ؛ وهي إلى جانب نابولي ، وصقلية ، وجزيرة مالطة تمثل الحدود الإسبانية ، التي تفصل الحوض الغربي للمتوسط الخاضع للسيطرة الإسبانية ، عن شرقه الواقع تحت نفوذ الدولة العثمانية [47] .

وقد قام الجزائريون بعدة محاولات لتخليص تونس من الهيمنة الإسبانية ، التي عانى منها التونسيون كانت أولها محاولة خير الدين في سنة 1534م ، ثم في سنة 1569 م حيث توجه علج علي تلبية لنداء أهلها ؛ الراغبين في التخلص من حاكمهم أبو العباس أحمد ، الموالي للإسبان [48].

وبعد معركة ليبانت سنة 1571م قررت إسبانيا مهاجمة تونس واسترجاعها ، ففي 07 سبتمبر 1573م تحركت حملة إسبانية بقيادة دون جوان النمساوي Don Juan d' Autriche ، الذي تمكن من الاستيلاء على تونس ، ونصب بها حامية إسبانية تتقاسم السلطة مع الملك الحفصي مولاي محمد الحفصي تحت تبعية إسبانيا [49].

فأرسل السلطان العثماني سليم الثاني ، الذي عزم على استعادة تونس إلى الأقاليم العثمانية في شمال أفريقيا ؛ يدعوهم إلى المشاركة في الحملة على تونس .وقد تولى قيادة هذه الحملة كليج علي باشا بيلرباي الجزائر سابقا ، وسنان باشا ، والتحقت بهم قوات من القيروان ، وطرابلس ، والجزائر بقيادة أحمد عراب ،إضافة إلى قوات من عنابة وقسنطينة [50].

وفي 13 سبتمبر من سنة 1574م تمكن المسلمون من فتح الباستيون ، وألقي القبض على مولاي الحسن الحفصي ، وقائد الحامية الإسبانية ، وبذلك سقطت الدولة الحفصية ، وضمت تونس نهائيا للخلافة العثمانية ، وأقيم بها نظام مشابه للنظام الجزائري [51].

خاتمة :

وبعد إنجازنا لهذا المقال يمكن أن نستخلص بعض النتائج ،وهي كالتالي :

1- شكل ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية منذ سنة 1519م ،وتحولها إلى إيالة عثمانية ؛نقطة تحول بارزة في تاريخها من جهة وفي تاريخ منطقة المغرب الإسلامي عموما ،وحتى في منطقة الحوض الغربي من المتوسط .

2- أصبحت إيالة الجزائر قوة بحرية يحسب لها حسابها في منطقة المتوسط ،والتي أخذت على عاتقها تحرير سواحلها ،وتحرير موانئ المغرب الإسلامي من الهجمات المسيحية .

3- من المعارك الأولى التي امتحنت فيها البحرية الجزائرية في المتوسط معركة بريفيزا في سنة 1538م ،التي هزمت فيها البحرية الجزائرية المتحالفة مع البحرية العثمانية ،الدول المسيحية المجتمعة .

4- ومن المعارك الهامة أيضا التي اشتركت فيها البحرية الجزائرية حرب مالطة في سنة 1565م ،تحالفت فيها الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية ،ورغم خسارتها إلا أن البحرية الجزائرية ؛أثبتت قوتها .

5- كما كان للبحرية الجزائرية دور مشرف في معركة ليبانت في سنة 1571م ،التي تحالفت فيها الدول الأوربية المسيحية ضد الدولة العثمانية .

6- ومن الأدوار المشرّفة أيضا للبحرية الجزائرية مساندتها لإخوانهم المسلمين المورسكيين ،سواء عند قيامهم بثورة البشارة في سنة 1568م ،أو في عمليات إنقاذهم ونقلهم إلى السواحل الإسلامية ،والتي بقيت متواصلة حتى الطرد النهائي .

6- يضاف إلى ذلك معركة تحرير تونس في سنة 1574م ،والتي كان للجزائر فيها دور كبير ،والتي انتهت بضم تونس نهائيا إلى الدولة العثمانية ،وإخراج الإسبان منها بصفة نهائية .

الهوامش:

(1) مولاي بلحميسي : **موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر خلال العهد العثماني** ، **في مجلة الدراسات التاريخية** ، العدد 5 ،معهد التاريخ جامعة الجزائر ،الجزائر 1987 ،ص ص 101-109 .

(2) عائشة غطاس : **نظرة حول تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر خلال العهد العثماني** ، **في مجلة الدراسات التاريخية** ، العدد 5 ،معهد التاريخ جامعة الجزائر ،الجزائر 1987 ،ص ص 116-127 .

(3) عائشة غطاس :المقال نفسه .

(4) ناصر الدين سعيدوني : **نظرة حول تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر خلال العهد العثماني** ، **في مجلة الدراسات التاريخية** ، العدد 5 ،معهد التاريخ جامعة الجزائر ،الجزائر 1987 ،ص ص 110-115 .

(5) ناصر الدين سعيدوني : المقال نفسه .

(6) عائشة غطاس: المقال السابق .

(7) نفسه .

(8) مولاي بالحميسي :المقال السابق.

(9) عزيز سامح التر : **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية** ، ترجمة : محمود علي عامر ، ط1 ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت 1989 ، ص 18 .

(10) محمد خير فارس : **تاريخ الجزائر الحديث** ، ط1 ، مكتبة دار الشرق ، بيروت ، 1969 ،ص 29 .

(11) مجهول : المصدر السابق ، ص 42 .

(12) الرسالة موجودة في : **عبد الجليل التميمي : أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول في سنة 1519م** ، في **المجلة التاريخية المغربية** ، العدد 06 ، تونس جويلية 1976 ، ص 118 .

(13) شارل أندري جوليان : **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، ترجمة : مزالي محمد وبن سلامة البشير ، ط2 ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1983 ، ج2 ، ص 325 .

(14) أحمد توفيق المدني : **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)** ، ط3 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1984 ، ص 215 .

(15) Ellie de la Primaudie : **documents inédits ... « lettre écrite d'Alger par un espion juif »**, in **la Revue africaine** , Alger 1875 , T19 , p 165 .

(16) سامح التر : المرجع السابق ، ص 121 .

(17) جون .وولف : **الجزائر وأوربا (1500-1830)** ، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ، ص 53 .

(18) وهي قاعدة عسكرية عثمانية بألبانيا . أنظر إلى إسماعيل أحمد ياغي : **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث** ، ط2 ، مكتبة العبيكان ،السعودية 1988 ، ص 70 .

(19) محمد فريد بك : **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، تحقيق : إحسان حقي ، ط6 ، دار النفائس ، بيروت 1988 ،ص 235 .

(20) Diego de Haèdo : **Histoire des Rois d'Alger**, traduit par : H.D.DE Grammont, Adolphe jourdan . Libraire-éditeur, Alger 1881 , p 56 .

(21) عبد الجليل التميمي : **الولايات العربية ومصادر وثائقها** ، ط 1، مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني ، تونس 1984 ،ص 86 .

(22) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 384.

(23) Haédo : op.cit , p 130 .

(24) Henri D.DE Grammont :**Histoire D'Alger sous la domination turque (1515-1830)** ,Ernest Leroux Editeur , Paris 1887 , p 100 .

(25) Haédo : op.cit , p 130 .

(26) DE Grammont : op.cit , p 100 .

(27) عمار بن خروف: **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن10هـ/16م** ، 2ج ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، الجزائر 2006 ، ج1 ،ص 105.

(28) ليلى الصباغ : **ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ / أواخر سنة 1568م والدولة العثمانية** ، **في مجلة الأصالة** ،العدد 27 ،الجزائر، أكتوبر 1975 ، ص 120 .

(29) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 91 .

(30) عبد الجليل التميمي : **رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م** ، **في المجلة التاريخية المغربية** ، العدد 03 تونس ، جانفي 1975 ، ص ص 43-46 .

(31) ليلى الصباغ : المقال السابق ، ص 120 .

(32) سامح التر : المرجع السابق ، ص 225 .

(33) عبد الجليل التميمي : **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين** ، **في المجلة التاريخية المغربية** ، تونس ، نوفمبر 1981 ، العدد 23-24 ، ص 196 .

(34) علي محمد الصلابي : **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط** ، ط1 ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ، 2005 ، ص 237 .

(35) Haédo : op.cit , p 139.

(36) أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 394 .

(37) Haédo : op.cit , pp 140,141 .

(38) عبد الجليل التميمي : **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين** ، المرجع السابق ، ص 198 .

(39) ليلى الصباغ : المرجع السابق ، ص 157 .

(40) عبد الجليل التميمي : **الولايات العربية ومصادر وثائقها** ، المرجع السابق ، ص 99 .

(41) سي يوسف محمد : **قيلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية** ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، الجزائر 1988 ، ص ص 115، 116 .

(42) Haédo : op.cit , p 146 .

(43) سي يوسف محمد :المرجع السابق ، ص ص 124 ، 125 .

(44) DE Grammont : op.cit , p 108 .

(45) محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 257 .

(46) محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 48 .

(47) Fernand Braudel : **les Espagnoles et l'Afrique du Nord de 1492-1577** ,in **la Revue africaine** , T19 , Alger 1928 , p 386 .

(48) ابن أبي الضياف : **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** ، الدار التونسية للنشر ، ج2 ، ص 19 .

(49) Fernand Braudel : **le Méditerranée et le monde méditerrané à l'époque de Philippe II** , T2 , 2eme édition , librairie Armand colin , Paris 1966 , p 422 .

(50) Ernest Mercier :**Histoire de l'Afrique septentrionale** , 3T, Ernest lerroux éditeur, Paris1891,T3 , p 116 .

(51) ابن أبي دينار : **المؤنس في أخبار أفريقية وتونس** ،المطبعة التونسية ، تونس 1286هـ/1870م ، ص 189 .